خلاف فى الرأى.. بين النفس والروح

اعتبر بعض الفلاسفة أن كلاً من الروح والنفس والعقل جوهر مستقل عن الآخر. وبعضهم اعتبر أن جميعه جوهر واحد. والرأيان وإن اختلفا فإنهما يؤديان إلى نتيجة واحدة حيث إن الروح تمدّ النفس والعقل بأشعة أنوارها الحيوية التى بدونها لا يبقى لها ولا للجسم وجود أصلاً.

كما يرى آخرون أن النفس والروح كلمتان مترادفتان لكائن واحد.. ويستدلون على ذلك بالآية الكريمة: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتى لم تمت فى منامها، فيُمسك التى قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى﴾ (سورة الزمر ٤٢: ٣٩).. والأنفس هنا جمع نفس ويفسرونها بالروح. ويؤيدون ذلك بقول بلال للنبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن شهاب «أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك».

ويقولون أيضًا بأن تكوين الكلمتين دالّ بذاته على ألاّ فرق بينهما. فالنفْس من النفَس، والروح من الريح، والنفَس والريح كلاهما يشيران إلى الهواء الذى يأخذه الكائن شهيقًا ويخرجه زفيرًا. وذلك لأن آباءنا الأولين واضعى هذه الألفاظ كانوا قد تصوّروا أن الحياة إن هى إلاّ هذه الأنفاس.

ولا شك على الإطلاق فى ارتباط الروح بالهواء فى بديهة المؤمنين الأولين بالأرواح. فإن الكلمات التى تطلق عليها فى العربية تدل كلها على ذلك وهى الروح والنفس والنسمة. وكلمة «بسيثى» Psyche اليونانية معناها النفس كمعنى «سبريت» Spirit فى اللغات الأوروبية الحديثة. وفى ذلك دلالة لا شك فيها على أصلها الأوّل من بداهة الإنسان[1].

وذهب فريق إلى أن الإنسان الحسّاس هو غير هذا الجسم المرئى. وأنه يمكن أن يخرج فى أحوال خاصة نادرة، من البدن فى حال النوم فيشاهد العالم ويرى الملكوت على حسب صفاته. وقال أفلاطون: إن النفس جوهر محرك للبدن. وقد حدّد صاحب المنطق

---

(١) كتاب «الله» للأستاذ عباس العقاد، الطبعة الخامسة، دار المعارف ص ٣٤.

النفس من وجه - أنها تمال الجسم لطبيعى، وحدّها من وجه آخر بأنه حىّ بالقوة. فلا فرق بين النفس والروح[1].

رأى سيدى عبد الكريم الجيلى:

وكان من رأى سيدى عبد الكريم الجيلى[2] أن النفس تسمى فى الاصطلاح على خمسة أضرب: نفس حيوانية، ونفس أمارة، ونفس لوّامة، ونفس ملهمة، ونفس مطمئنة. وكلها أسماء الروح إذ ليس حقيقة النفس إلّا الروح، وليس حقيقة الروح إلّا الحق. فالنفس الحيوانية تطلق على الروح باعتبار تدبيرها للبدن فقط. وأما عند الفلاسفة فالنفس الحيوانية هى الدم الجارى فى العروق، وليس هذا بمذهبنا. ثم النفس الأمارة تسمى به باعتبار ما يأتيه من المقتضيات الطبيعية الشهوانية بالانهماك فى الملاذ الحيوانية وعدم المبالاة بالأوامر والنواهى. ثم النفس الملهمة تسمى به باعتبار ما يلهمها الله تعالى به

---

(١) راجع كتاب «سر الحياة فى النفس والإنسان» للمسعودى. وكتاب «النهى والكمال»، وكتاب «طب النفوس» وكتاب «النفس الناطقة» وتقسيمها إلى نفوس فاضلة، ونفوس أصحاب الفراسة والقيافة والأثر وغير ذلك، والكلام على تشريحها وثمرته»، ورسالة ابن العربى ـ النفس البشرية.

(٢) أحد متصوفة القرن الرابع عشر الميلادى. توفى عام ٨٠٥ هـ وهو صاحب كتاب «الإنسان الكامل» وهو غير سيدى عبد القادر الجيلانى صاحب كتاب «الفيض الرحمانى» أحد أئمة الصوفية فى القرن السادس، وقطب الطريقة القادرية.

من الخير. فكل ما تفعله النفس من الخير هو بالإلهام الإلهى، وكل ما تفعله من الشرّ هو بالاقتضاء الطبيعى..

ويأخذ سيدى الجيلى فى وصف كل نفس من هذه الأنفس حتى ينتهى إلى أن النفس إذا انقطعت عنها الخواطر المذمومة مطلقًا تسمى مطمئنة، ثم إذا ظهر على جسدها الآثار الروحية من طى الأرض، وعلم الغيب، وأمثال ذلك فليس لها اسم إلّا الروح.

ثم يقول فى كتابه: «الإنسان الكامل فى علم الأواخر والأوائل»، إن الأرواح إذا تشكلت بصورة من الصور لا سبيل إلى أن تنخلع تلك الصورة عن نفسها بأن تعود إلى البساطة الأصلية هذا ممتنع لكنها فى قوّتها أن تتصور بكل صورة على عدم مفارقتها للصورة الأصلية التى لها حكمة من الله تعالى. وتلك الصورة الروحانية هى كلمات الله تعالى التى تقوم بالموجودات كما تقوم الروح بالجسد. فإذا برزت من الغموض العلمى إلى الجلاء العينى تبقى قائمة بذواتها فى الوجود. فجميع أجسام العالم من المخلوقات من المعدن والنبات والحيوانات والألفاظ وغير ذلك لها أرواح قائمة بها على صورة ما كانت عليه أجسامها. حتى إذا زال الجسم بقيت الروح مسبحة لله تعالى. باقية بإبقاء الحق لها: لأن الحق لم يخلق الأرواح للفناء وإنما خلقها للبقاء، فالمكاشف إذا أراد كشف أمر من أمور الوجود تتجلّى عليه تلك الأرواح التى هى كلمات الله تعالى فيعرفها بأعيانها، وأسمائها،

وصفاتها، وأوصافها. فإن كل روح من أرواح الوجود متجلية فى الملابس التى كانت أوصافًا، ونعوتًا، وأخلاقًا على الجسم الذى كانت تدبّره.

رأى الإمام ابن القيم الجوزية:

ولقد أفرد الإمام شمس الدين بن القيم الجوزية فى كتابه «الروح»، فصلًا عن حقيقة النفس، وهل هى جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه، أو جوهر مجرد؟.. وهل هى الروح أو غيرها؟.. فيقول: «هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت أقوالهم فيها، وكثر فيها خطؤهم. وهدى الله أتباع الرسول وأهل سنّته لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»(١).

قال أبو الحسن الأشعرى فى مقالاته «اختلف الناس فى الروح والنفس والحياة، وهل الروح هى الحياة أو غيرها، وهل الروح جسم أم لا؟». فقال النظام إن الروح هى جسم وهى النفس وزعم أن الروح حىّ بنفسه، وأنكر أن تكون الحياة والقوّة معنى غير الحىّ القوى.

وقال آخرون بأن الروح ليس شيئًا أكثر من اعتدال الطبائع الأربع. ولم يرجعوا من تأويلهم (اعتدال) إلا إلى المعتدل ولم يثبتوا فى

(١) انظر كتاب «الروح لابن قيم» الطبعة الثالثة ١٩٦٧ ص ١٧٥.

الدنيا شيئًا إلاّ الطبائع الأربع التى هى : الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.

وقال آخرون إن الروح معنى خامس غير الطائع الأربع، وأنه ليس فى الدنيا إلا الطبائع الأربع والروح. واختلفوا فى أعمال الروح فثبتها بعضهم طباعًا وثبتها بعضهم اختيارًا.

وقال آخرون إن النفس معنى غير الروح، والروح غير الحياة، والحياة عنده عرض. ولقد قال بذلك أبو الهذيل، وزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان فى حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة. واستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها﴾ (سورة الزمر ٤٢ : ٣٩).

وقال آخرون : إن النفس هى النسيم الداخل والخارج بالتنفس، أما الروح عرض، وهو الحياة فقط، وهو غير النفس، وهذا قول القاضى أبو بكر بن الباقلانى ومن اتبعه من الأشعرية.

* * *

وهناك من أهل الحديث والفقه والتصوف من يقول إن الروح غير النفس. فمقاتل بن سليمان يقول إن للإنسان حياة وروحا ونفسا فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع، فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه،

وتبقى الحياة والروح فى الجسد فيه يتقلب ويتنفس[1]. فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين. فإذ أراد الله عزّ وجل أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت.. وقال أيضًا: إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق، فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح، ويخبر الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت.

وقال بعض آخر إن للنفس طينية نارية، والروح نورية، روحانية.

وقال آخرون إن الروح لاهوتية، والنفس ناسوتية، وأن الخلق بها ابتلى..

وقال فريق آخر من أهل الأثر: إن الروح غير النفس، والنفس غير الروح. وقوام النفس بالروح، والنفس صورة العبد، والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها. ولا عدوّ أعدى لابن آدم من نفسه فالنفس لا تريد إلّا الدنيا. ولا تحب إلّا إيّاها. والروح تدعو إلى الآخرة، وتؤثرها. وجعل لهوى تبعًا للنفس، والشيطان تبع النفس والهوى، والملك مع العقل والروح، والله تعالى يمدّهما بإلهامه وتوفيقه.

رأى قسطا بن لوقا:

ومن الآراء المفيدة فى هذا الموضوع والتى يجب أن نعيرها اهتمامًا

---

(١) تعنى هذه الحالة فى العلم الحديث: انفصام الحبل الأثيرى الذى يصل ما بين الجسدين الأثيرى والمادى.

كبيرًا، رأى قسطا بن لوقا[1]، الذى أثبته فى مخطوطته : «رسالة فى الفرق بين الروح والنفس». وكان قد ألفها لعيسى بن أفرخشاه، وهى من الآثار النفيسة التى تدلّ على ما كان لصاحبها من سعة المعرفة بحكمة اليونان كأرسطو وأفلاطون، وبطبهم كبقراط وجالينوس، فجمع فى أوراق قليلة عدّة معلومات متفرقة فى كتبهم. ولقد تكلم ابن لوقا فى رسالته هذه بعد المقدمة عن : معرفة الروح الحيوانى، والروح النفسانى، والقول فى النفس، وحدّ النفس لأفلاطون، وتحريك النفس للبدن على أى جهة هو، والقول فيما حدّه أرسطوطاليس للنفس، والقول فى قوى النفس. ثم ختم رسالته بالقول فى الفصل بين الروح والنفس. ولما لهذا الفصل من أهمية فى موضوعنا رأينا أن نثبته فيما يلى :

«وإذ قد شرحنا ما هية الروح والنفس، فلنخبر الآن عن الفصل

---

(١) هو قسطا بن لوقا البعلبكى، أحد مشاهير علماء الدولة العباسية. قال صاحب الفهرست (ص ٢٩٥) بعد ذكره لحنين بن إسحق العبادىّ : «كان يجب أن يقدّم على حنين لفضله ونبله وتقدّمه فى صناعة الطب، ولكن بعض الإخوان سأل أن يقدّم حنين عليه. وكلا الرجلين فاضل. وكان بارعًا فى علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة وغيرها. جيد العبارة بالعربية».

ونقل ابن أبى أصيبعة (١ : ٣٤٤) عن سليمان بن حسّان أن قسطا مسيحى النحلة، طبيب حاذق نبيل. وكان فصيحًا باللسان اليونانى والسريانى والعبرى. وأصلح منقولات كثيرة، وأصله يونانى.

ولقسطا من المؤلفات ما يربو عن الخمسين كتابًا فقد أكثرها.

بينهما. وذلك أن الروح جسم والنفس غير جسم. وأن الروح يُحوى فى البدن، وأن النفس لا يحويها البدن. وإن الروح إذا فارق البدن بطل، والنفس تبطل فعلها من لبدن ولا تبطل هى فى ذاتها. وأن النفس تحرك البدن وتيله الحسّ. والروح يفعل ذلك بغير الحسّ. وإن النفس تنيل البدن والحياة بتوسط الروح، والروح يفعل ذلك بغير توسط وأن النفس تحرك البدن وتنيله الحسّ والحياة، بأنها أوّل علّة ذلك البدن وفاعلة فيه. والروح يفعل ذلك وهو علّة ثانية. فالروح إذن علّة قريبة لحياة البدن وحسّه وحركته وباقى أفعاله البعيدة. وذلك أن بدن الإنسان لما كان مركبًا من أجزاء صلبة وهى العظام والغضاريف والأعصاب ولعروق وما أشبه ذلك، ومن أعضاء رطبة وهى الأخلاط، أعنى الدم والبلغم والمرّتين، ومن الروح أعنى الذى فى تجويفات القلب والدماغ والشريانات. وكان الروح أرقّ هذه الأجزاء وألطفها وأصفاها، كان أشدّ قبولاً لأفعال النفس من سائر أجزاء البدن. وعلى قدر رقّته ولطفه وصفائه قبل من فعل النفس؛ ولذلك قال الفلاسفة إن قوى النفس تابعة لمزاج البدن؛ لأن الإنسان إذا كان مزاج بدنه فى غاية الاستواء كانت أفعال النفس فى غاية الاستواء ومن قَصُر مزاج بدنه أعنى الأعضاء التى فيها الروح - عن الاعتدال المخصوص بها، قُصر أيضًا الروح عما يجب له من الرقة واللطف، وقصرت أفعال النفس فيه بتلك النسبة ولذلك صارت قوى النفس فى الصبيان ناقصة، وفى النساء ضعيفة.

وكذلك فى الأمم التى غلبت على أمزجتها الحرارة والبرودة كالزنج والصقالبة ومن أشبههم. وكذلك اختلفت أفعال النفس فصار فى الروح الذى فى القلب أفعال الحياة والنَفَس والنبض فقط؛ إذ أن ذلك الروح أقرب الأرواح إلى الحياة، وأقلها لطفًا، ورقة، وصفاء ثم الذى فى التجويفات التى فى مقدم الدماغ صار فيه الحسّ والتخيل لما ناله من زيادة الرقة واللطف على ما فى الروح الذى فى القلب.. ثم الروح الذى فى التجويف الذى بعده فيه الفكر والروية بفضل ما ناله من اللطف والرقة على الروح الذى فى مقدم الدماغ. ثم الروح الذى فى مؤخره صار فيه الذكر والحفظ لما يحتاج فى ذلك من فضل الرقة واللطف أيضًا إذا كان يريد أن يذكر شيئًا قد مضى وبعد عهده».

رأى فضيلة الأستاذ محمد متولى الشعراوى:

ولا يفوتنا هنا أن نذكر آراء بعض علمائنا الأجلاء المعاصرين ممن لهم وزنهم ولهم مكانتهم فى العالم العربى. ومن هؤلاء العلماء الشيخ محمد متولى الشعراوى وزير الأوقاف وشئون الأزهر فهو يقول فى لقاء مع الأستاذ أحمد زين مدير تحرير جريدة «الأخبار» فى ١٩٧٧/٧/١٥ ما يلى:

«هناك الروح، وهناك النفس.. والنفس هى التقاء الروح بالمادة

فإذا التقت الروح بالمادة. فهذه هي النفس؛ ولذلك فإن التكليف للنفس الإنسانية. التكليف ليس للروح وحدها. ولا للمادة وحدها، ولكن للنفس. فحين تلتقي الروح بالمادة تنشأ الحياة الأرضية. أو تنشأ النفس.. حين نفهم كلمة الروح، فإننا نقصد ما به حياة المادة. ما به حياة المادة هذا.. أهو إرادة لله له أن يحيا؟.. أهو مجرد إرادة الله؟.. فإذا سلب لله هذه الإرادة ذهبت الحياة وانتهت واختفت؟ أم هو عنصر يدخل مع المادة ويكون منها الحياة لأجل معين، ثم تنتهي هذه الحياة؟.

هناك عدة آراء للعلماء في هذا الموضوع. ونعود إلى الآية الكريمة: ﴿ويسألونك عن الروح﴾.. حينما سئل الرسول عن الروح، كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هي الروح وما ماذا تتكون.. وهنا ردّ الله تعالى أن علمكم لن يصل إلى هذا أبدًا. أنتم تسألون ما هي الروح، وأنا أقول لكم إن علم البشرية لن يصل إليها.. لن يصل إليها جزمًا ويقينًا. لذلك كان يجب أن يسألوا عنه من أين جاءت هذه الروح، لأنك أنت استفدت بهذه الحقيقة. حقيقة الروح سواء علمت بها أو لم تعلم والانتفاع بالشيء لا يقضي أو لا يقتضي العلم به.. قد تبدو هذه العبارة متناقضة، ولكنني سأفسرها لك:

الأعمى يستخدم الكهرباء، ويضع يده على الجرس فيحدث رنينًا. ويضع يده على مفتاح النور فتضيء الحجرة.. هل يعرف هذا الرجل

الذى لا يقرأ ولا يكتب حقيقة الكهرباء؟.. أبدًا ولكنه ينتفع بها. بل أنت فى حياتك ملايين الأشياء التى تنتفع بها ولا تعرف شيئًا عن حقيقتها. هل يعرف كل من يركب الطائرة حقيقة الطيران؟ هل يدرى كل من يستخدم التليفون كيف تتم المكالمات التليفونية؟.. هل يعرف كل من يستخدم القمر الصناعى مثلاً فى اتصاله بالخارج، كيف تتم الاتصالات عن طريق القمر الصناعى؟.. هل يدرى كل من يشاهد التليفزيون الحقيقة التى يتم على أساسها نقل الصورة؟.. أبدًا ملايين يركبون الطائرات ويجهلون نظرية الطيران. عشرات الملايين يتحدثون فى التليفون ولا يعرفون شيئًا عن حقيقته. ومئات الملايين فى العالم ينتفعون بالتليفزيون دون أن يعرفوا شيئًا عن حقيقته. إذن انتفاعك بالشىء لا يعنى بالضرورة أنك تعرف حقيقته. بل قد تجهل حقيقته تمامًا. ومع ذلك تنتفع به.. إذن أنت تنتفع بالروح، وإن كنت تجهل ما هى. ولا يعنى أن الله قد حجب حقيقتها عنك. إنك لا تستطيع أن تنتفع بها. إنها فى داخلك.. فى داخل كل جسد حى.. تهبه الحياة، والحركة، والقدرة».

رأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب:

ومن علمائنا الأجلاء أيضًا ممن يعتدّ برأيهم الأستاذ عبد الكريم خطيب، ولقد أبدى رأيه فى هذا الموضوع فى كتابه القيم «التفسير

القرآن للقرآن» (الجزء الثانى عشر، صفحة ١١٦١/١١٦٧) نقتطف منه ما يلى:

«.. وهنا نودّ أن نقف قليلاً بين يدى قوله تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها، فيمسك التى قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾.

فقد أشارت الآية الكريمة إلى أن فى الإنسان نفسًا، وأن هذه النفس تُردّ إلى الله، على حين ترك الجسد لمصيره فى التراب.

فالإنسان إذن نفس وجسد.. وهما طبيعتان مختلفتان، فالنفس من العالم العلوى، والجسد من عالم التراب، وأنهما إذ يجمع الله بينهما بقدرته، فيجعل منهما - سبحانه - كائنًا سويًا هو الإنسان، فإنه سبحانه بقدرته كذلك يحفظ كل منهما طبيعته، حتى إذا انتهى الأجل الذى قدره الله لاجتماعهما افترقا. فلحق كل منهما بعالمه الذى هو منه.. النفس إلى عالمها العلوى، والجسد إلى عالمه الترابى..

وقبل أن نتحدث عن ماهية النفس، وعن الآثار التى تتركها فى الجسد، أو يتركها الجسد فيها، حين اجتماعهما، نودّ أن نشير إلى كائن آخر، يعيش مع الجسد والنفس، هو الروح. فقد أشار القرآن الكريم إلى الروح، فقال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى﴾. وإذن فهناك: الجسد، والروح، والنفس.. وثلاثتهما هى الإنسان..

فما الجسد؟.. وما الروح؟.. وما النفس؟..

وليس ثمة خلاف فى أن الجسد، هو هذا الكيان من اللحم، والعظم، والدم، والذى هو المظهر المادى للإنسان.

أما الروح، وأما النفس، فهما قوّتان غيبيتان تسكنان إلى هذا الجسد، فيكون بهما معًا هذا الإنسان الحىّ، السميع، البصير، العاقل، المميز بين الخير والشر، والنافع والضار.

والسؤال هنا: هل الروح والنفس حقيقة واحدة، أم هما حقيقتان؟ وإذا كانتا حقيقتين، فهل هما من طبيعة واحدة أم من طبيعتين مختلفتين كالاختلاف الذى بينهما وبين الجسد؟.

.ن القرآن الكريم يحدثنا عن الروح، وعن النفس..

وفى حديث القرآن عن الروح، نجد أنها نفحة الحياة فى الإنسان، وأنها من روح الله، فيقول سبحانه فى خلق آدم: ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ (٢٩: الحجر). ويقول سبحانه: ﴿ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه﴾ (٩: السجدة). ويقول سبحانه فى خلق عيسى عليه السلام: ﴿ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ (١٢: التحريم).

فالروح هى مبعث الحياة فى الإنسان، وهى التى تخرج هذا الجسد الهامد إلى عالم الحياة والحركة.

والإنسان فى هذ الحدود، لا يخرج عن كونه حيوانًا، ذا حس حى، يتنفس ويتحرك، ويطلب الغذاء الذى يحفظ حياته.

فهل للحيوان روح كهذه الروح التى تلبس الإنسان، وتكسوه حياة وحركة؟

إننا إذا رجعنا إلى قوله تعالى عن الروح: ﴿قل الروح من أمر ربى﴾ نجد أن الروح التى تلبس الكائن الحى - من إنسان أو حيوان - هى روح، وهى من أمر الله.

ولكننا إذ ننظر فى قوله تعالى فى خلق آدم: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى﴾. وقوله سبحانه: ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾، نجد مزيدًا من الفضل والإحسان والتكريم للإنسان، بإضافة روحه إلى الله سبحانه وتعالى. وهذه الإضافة تضفى على روح الإنسان صفاءً إلى صفاء، وقوّة إلى قوّة.

وإنه إذا كان لا حديث للعلم فى هذا الأمر الغيبى، فإن المشاهدة تدعونا إلى القول بأن الأرواح التى تلبس الكائنات الحية بما فيها الإنسان - ليست على درجة واحدة من القوّة التى تنبعث منها فى الكائن الحىّ، وفى الآثار التى تحدثها فيه.

ففى عالم الحيوان مثلاً، نجد من الحيوانات مالا تكاد تُحسّ فيه الحياة، كالديدان مثلاً كما نجد حيوانات تكاد تعقل كالقردة. وبين

هذه وتلك أنماط كثيرة من الحيوات التى تلبس عالم الحيوان. وهذا يعنى أن اختلافًا ما بين روح وروح؛ إن لم يكن فى النوع، ففى القدرة، وفى الدرجة.

ومن جهة أخرى، فإننا نجد فى عالم البشر أناسًا لا يبتعدون كثيرًا عن عالم الحيوان، بينما نجد الذكاء والألمعية والعبقرية فى أناس آخرين.

وهؤلاء وأولئك جميعًا يلبسون أرواحًا من مورد واحد، هى نفخة الله سبحانه وتعالى فى الإنسان.. وهذا يعنى أن الاختلاف فى الأرواح البشرية ليس فى النوع، وإنما فى القدر والدرجة أيضًا. بمعنى أن الاختلاف بين إنسان وإنسان فى العقل، والذكاء، والبصيرة، هو اختلاف فى القدر الذى كان للجسد من عالم الروح، وفى الكمية - إن صحّ هذا التعبير - التى فاضت عليه من هذا العالم!!

وهذا أيضًا ما يشير إليه الفلاسفة فى حديثهم عن الروح، وأن كل جسد إنما تلبسه روح خاصة به، مقدّرة بحسب استعداده الفطرى، وقدرته على احتمال ما يفاض عليه منها.

وإذن فهذا الاختلاف بين الكائنات الحيّة، ومنها الإنسان، هو أثر من آثار الروح التى لبسته، وأنه بقدر حظه من الروح - قدرًا لا نوعًا - يكون حظه من الترقى فى سلم الحياة.

وإذا كان لنا أن نسمه عالم الروح بمولد كهربائى عظيم، وكان لنا أن نشبه الأجسام بلمبات الكهرباء، على اختلاف قوّتها، مما هو دون الشمعة، إلى آلاف الشمعات، كان لنا أن نتمثل الأجسام، أو اللمبات الكهربائية، وقد اتصلت بالمولّد الكهربائى العظيم، فأخذ كل جسم أو كل لمبة بقدر قوّته من النور لكهربى، أو من عالم الروح!!

وعلى هذا نرى أن الكائن الحى، جسد وروح، وأن الإنسان كذلك جسد وروح، وإن كان حظه من عالم الروح - قدرًا لا نوعًا - أكبر من أىّ كائن حىّ آخر فى غير عالم الإنسان.

إذن فما النفس؟

أهى الروح الإنسانية، سميت بهذا الاسم، للتفرقة بين روح الإنسان وروح الحيوان.. إذ كان للإنسان النصيب الأوفى من هذا النور العلوى المفاض على الأحياء؟ أم هى شىء مضاف إلى خلق الإنسان، به صار الإنسن إنسانًا، بعد أن أصبح بالروح حيوانًا؟

يحدث القرآن الكريم عن النفس، على أنها كائن له وجود ذاق مستقل، وبمعنى آخر، إن القرآن يخاطب الإنسان فى ذات نفسه، باعتبار أن النفس هى القوّة العاقلة المدركة فيه، فيقول سبحانه: ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾، ويقول جل شأنه: ﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى

عبادى وادخلى جنتى﴾ (٢٧ / ٣٠ : الفجر)، ويقول سبحانه : ﴿ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ (١ : الطلاق).

فالنفس هنا، وفى مواضع أخرى كثيرة من القرآن، هى الإنسان العاقل، المكلف، وهى الإنسان الذى يُتوقع منه الخير أو الشر، والهدى أو الضلال. ثم هى الإنسان بجميع شخصياته، جسدًا وروحًا.

وإن بالفهم الذى يستريح إليه العقل فى شأن النفس، هو أنها شىء غير الروح، وغير العقل.. وأنها هى الذات الإنسانية أو الإنسان المعنوى، إن صح هذا التعبير. إنها تتخلق من التقاء الروح بالجسد.. إنها التركيبة التى تخلق فى الإنسان ذاتية يعرف بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووجدانه ومدركاته.. النفس هى ذات الإنسان، أو هى مشخصات الإنسان التى تنبئ عن ذاته.

* * *

من آراء علماء الغرب :

أما علماؤنا المعاصرون الذين ألّفوا فى علم النفس الحديث فإنهم لم يجعلوا بين النفس والروح والعقل فرقًا.. وكذلك علماء النفس الغربيون فإنهم لا يفرّقون بين النفس والروح أيضًا، حتى أن الأستاذ «بروراك» قال فى كتابه : «مبادئ الفلسفة» : إن الناس قد اعتادوا

أن يفهموا من الروح أو النفس معنى غامضًا لاهوتيًا. وأما نحن فنفهم منها مجموع قوى الإرادة، والفكر، والوجدان.

ويقول هنرى برجسون «إن كل واحد منا مؤلف من جسد خاضع لنفس القوانين التى تخضع لها سائر أجزاء المادة. إذا دفعته تقدّم وإذا سحبته تقهقر، وإذا رفعته ثم تركته عاد فسقط. غير أن هناك إلى جانب هذه الحركات التى تحدثها علّة خارجية إحداثًا آليًا، هناك حركات أخرى يبدو أنها تأتى من الداخل، وتمتاز عن السابقة بأنها لا يتنبأ بها، وتدعى بالحركات «الإرادية»، فما هى علّة هذه الحركات؟ هى ما يدعوه كلٌّ منّا بلفظة «أنا». وما هى هذه «الأنا»؟.. هى شىء يخيل إلينا، خطأ أو صوابًا، أنه يصفو على الجسم الذى انضم إليه، ويفوقه فى الزمان وفى المكان، أما فى المكان فلأن جسد كل منا محدود بحجمه على حين أننا نمضى بالإدراك، وبالبصر على وجه الخصوص، إلى أبعد من جسمنا بكثير، فنبلغ النجوم. وأما فى الزمان فلأن اجسد مادة، والمادة موجودة فى الحاضر، وهب الماضى يخلّف فيها بعض الآثار، فليست هذه الآثار آثارًا للماضى إلاّ فى نظر شعور يدركها، ويفسّر ما يدرك على ضوء ما يتذكر. إن الشعور هو الذى يحفظ هذا الماضى وما يزال يتلفف به ما سار الزمن، ويهيىء معه مستقبلاً يساهم فى خلقه.

وما الفعل الإرادى نفسه، الذى ذكرناه منذ لحظة، إلاّ مجموعة

من الحركات تعلمناها من التجارب السابقة، وتوجهها اتجاهًا جديدًا فى كل مرة هذه القوّة الواعية التى يلمح أن وظيفتها هى أن لا تنفك تأتى إلى الدنيا بجديد. نعم، إنها تخلق شيئًا جديدًا فى خارج ذاتها، لأنها ترسم فى المكان حركات لا يتنبأ بها ولا يمكن التنبؤ بها، وهى تخلق شيئًا جديدًا فى داخل ذاتها كذلك؛ لأن الفعل الإرادى يرتد إلى الذى أراده، ويبدل طبع الشخص الذى صدر عنه بعض التبديل ويحقق بضرب من المعجزة هذا النوع من خلق الذات لذاتها، هذا الخلق الذى يبدو أنه هو العرض من الحياة الإنسانية.

والخلاصة إذن هى أننا ندرك عند الجسم الذى تحدّه فى الزمان اللحظة الحاضرة، ويحدّه فى المكان الحيّز الذى يشغله ويعمل كأنه آلة، ويستجيب للمؤثرات الخارجية ميكانيكيًّا، نـدرك شيئًا يمتدّ إلى أبعد من الجسد فى المكان، ويدوم عبر الزمان ويطلب من الجسم بل يقتضيه حركات ليست آلية فيتنبأ بها، بل حرة فلا يمكن التنبؤ بها. هذا الشيء الذى يضفو على الجسم من كل الأطراف، ويخلق أفعالاً فيخلق نفسه من جديد، هو «الأنا»، هو النفس، هو الروح، ما دامت الروح ليست إلا قوّة تستطيع أن تستخرج من ذاتها أكثر مما تحوى، وتعطى أكثر مما تأخذ، وتهب أكثر مما عندها. ذلك ما يتراءى لنا، ذلكم هو المظهر»[1].

(١) عن كتاب «الطاقة الروحية» لهنرى برجسون، ترجمة الأستاذ سامى الدروبى، الطبعة الثانية ١٩٦٣ ص ٢٤/٢٥.

ويقول برجسون أيضًا: «إن التجربة تبين لنا أن حياة النفس، وإن شئت فقل حياة الشعور، مرتبطة بحياة الجسم، وإن ثمة تضامنًا بينهما، ولا شيء غير ذلك. ولكن هل ثمة من أنكر هذه النقطة؟ إلّا أنه شتّان بين أن نقرر ذلك وبين أن نقول إن الدماغ معادل العقلي، وإن في الإمكان أن نقرأ في الدماغ كل ما يجري في الشعور المقابل. إن الثوب الذي سلّق على مسمار متضامن مع هذا المسمار، فإذا وقع المسمار وقع هو معه، وإذا اهتز اهتز، وإذا كان رأس المسمار حادًا جدًا تمزق. ولكن ليس ينتج عن هذا أن كل جزء من أجزاء المسمار مقابل جزءًا من أجزاء الثوب، ولا أن المسمار معادل للثوب ولا أن المسمار والثوب شيء واحد. نعم إن الشعور معلق بالدماغ، ولكن ليس ينتج عن ذلك أبدًا أن الدماغ يرسم كل تفاصيل الشعور، ولا أن الشعور طيفة للدماغ. وكل ما تسمح لنا المشاهدة والتجربة (أي العلم) بتقريره هو أن ثمة علاقة بين الدماغ والشعور.

فما هي هذه العلاقة؟ هنا إنما نستطيع أن نتساءل هل قدمت الفلسفة ما كان يحق للناس أن ينتظروه منها. فعلى عاتق الفلسفة إنما تقع مهمة دراسة حياة النفس في كافة مظاهرها.. فواجب الفيلسوف الذي تمرّس على الملاحظة الداخلية أن يغوص إلى أعماق نفسه، ثم يتابع في عودته إلى السطح. الحركة التدريجية التي يسترضي بها الشعور وينبسط، ويتهيأ لأن ينتشر في المكان..»[1].

(١) نفس المرجع ص ٣٩.

النفس والروح عند اليوجيين :

أما اليوجيون والمتصوفة الهنود فعندهم النفس إنما هى قطرة من أوقيانوس الروحية غير المحدود. ويؤمنون بأن هناك قبسًا من الله فى كل إنسان يزداد اشتعالاً كلما اقترب المرء من خالقه.. فالشاعر والفيلسوف والعالم واليوجى والروح التى تفوق هؤلاء استنارة تحوى منه أكثر مما يحويه رجل الشارع. والنور أو الله الساكن فينا يلمع بقدر ما تنقشع عنه الأغلفة المادية إلى أن يحين الوقت الذى يتجلى الله فينا فى كامل مجده، وإذ ذاك لن تقوم عوائق روحية ونستطيع بإرادتنا التحليق إلى الآفاق العليا لنلمّ بأسرار تلك العوالم وقواها، وتصبح النفس واحدًا مع اللانهائى، وتندمج القطرة فى المحيط وتصبح المحيط ذاته. فإن كل نفس هى إله فى دور التكوين تدثرت بأغطية مادية معتمة. فهى كالشمس التى تسطع بلمعانها خلف الغيوم[1].

ويقولون إن النفس فى الآونة الحاضرة أسيرة القلعة الثلاثية الجدران وهى : الأجسام المادية، والكوكبية، والسببية. بالإضافة إلى أغلال العقل والوهم والصفات الثلاثة والعناصر الخمسة والمظاهر الخمسة والعشرين للعناصر اخمسة، والتى جميعها تكبّله.

---

(١) ويتفق شهاب الدين السهروردى المقتول مع هذا الرأى فى كتابه «هياكل النور»، فيقول إنه كلما اقترب العبد من مصدر النور كان أكمل. ويرى أن أقرب الخلق، إلى هذا النور هو الرسول صلى الله عليه وسلم

ويؤكدون أن كلمة « نفس » معناها أنت نفسك بجسمك الأثيرى فقط، وأن جسمك الأثيرى يسكن جسدك المادى، وهو مندمج به كم يندمج الماء بالدقيق، والسكر بالماء .

ويصفون النفس بأنها « مركز وعى »، وذلك لأنهم لا يجدون خيرًا من هذا الوصف؛ لأن فيها القبس الإلهى تحيط به حجب، وهذه الحجب على درجات وأشكال، من جوهر العقل والطاقة والمادة.

وحتى بعد أن نترك جسد (عند الموت) لا تتخلص النفس من المادة فإن لها مراكب أو أجساد من المدة الشفافة فى درجات مختلفة من الصفاء.

أما كيفية مولد النفس فإن بعض النفوس التى سمت وبلغت المستويات التى تستطيع منها أن تطل على الكثير من أحداث الكون، فسبب ذلك إرادة إلهية تشبه الرغبة الملحة فى الإنسان. يريد الله فيكون ما يريد، ويحدث ذلك المظهر، وبديهى أن ما يحدث ليس إرادة بالمعنى الذى نعرفه للكلمة، ولكننا لا نجد له تسمية أخرى أو وصفًا آخر.

* * *

وأمّا الروح فى تعاليم فلسفة اليوجا فهى ذلك الجزء الصغير من المطلق الذى يبدو منفصلاً عن المطلق، وما هو بمنفصل عن الواحد.. هو المبدأ الأسمى فى كل نفس حتى أحطّ النفوس فيها ذلك

القبس. إنه فينا أبدًا لا يزيد ولا ينقص، ولكننا نحن نزداد إبصارًا لنوره كلما تقدمنا وارتقينا على السلم درجة بعد درجة.. إن الروح موجود دائمًا لا يتغير ولا يتبدل ولكن وعى الإنسان ينمو مقتربًا من الروح، ولابدّ أن يندمج يومًا فيه، وهذا هو هدف النفس وغاية التدرج والتقدم، والغرض من كل جهاد وكفاح.

وتنصّ هذه الفلسفة على أن الروح إنما هى عبارة عن شعاعة واصلة من الذات العلية، أو شعلة من الروح القدس أو نفحة من روح الله تسرى فى كياننا الأثيرى وتمنحه الحياة. أما الجسد فهو حىّ بالشعاعة لأنه مندمج بالنفس الأثيرية. وبهذه الروح أو بهذه الشعلة يحيا المخلوق سواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو نباتًا أو جمادًا أو ملاكًا هذه الشعاعة هى سرّ الحياة الغامض، ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1].

هذه الروح هى سر الحياة، هى مادة الحياة، هى الحياة نفسها وبعد الانتقال (الوفاة) يترك الجسم الأثيرى ومعه الروح، الجسم المادى الفانى، حيث يتلاشى ويتحوّل إلى عناصره الأولى. أما الجسم الأثيرى ومعه الروح فيحيا ويعيش فى عالمه الروحى الأثيرى إلى أن يشاء له الله فى تطوره ما يشاء.

* * *

(١) انظر كتاب «اليوجا ينبوع السعادة» للأستاذ عباس السيرى، ص ١٣٤

ولقد جعل روحيّو الغرب بين الروح والنفس فرقًا جليًّا؛ فالروح عندهم هى المفيضة على النفس سرّ الحياة، والنفس هى المدبّرة لأمر البدن. وما البدن إلاّ آلة للحقيقة الإنسانية تستعمله لترقية هويتها الذاتية إبان ظهورها فى العالم العضوى. وإلى ذلك يشير أبو العلاء المعرى فى شعره:

قلمت ظفرى تارات وما جسدى إلاّ كذاك متى فارق الروحا
يا نفس يا طائرًا فى سجن مالكه لتصبحنّ بحمد الله مسروحا

وفى هذا الصدد يقول العالم الروحانى الكبير «آلان كارديك» فى مؤلفه «كتاب الأرواح»

«.. والنفس حسب رأى البعض، هى أساس الحياة المادية العضوية. وليس لها وجود ذاتى، وتنتهى بانتهاء الحياة. وهذه تسمى بالمادية المحضة. وفى هذا المعنى وبالمقارنة، يقول هذا البعض إن الأداة أو الآلة المشروخة التى لا يصدر عنها صوت، ليس لها نفس. ومن هذه الآراء ما يعتبر النفس نتيجة لا سببًا. ويرى آخرون أن النفس، وهى أساس العقل، أى القوّة المدركة، عامل عالمى يستمد كل كائن جزءًا منها. ومن رأى هؤلاء أنه لا يوجد فى الكون إلاّ نفس واحدة فقط ينتشر منها شرارات توزعها بين مختلف العقول طوال مدة الحياة. أما بعد الموت فتعود كل شرارة إلى المنبع العام، المشترك، حيث تندمج فى الكل. فهى أشبه بالروافد والأنهار التى ترجع مياهها إلى

البحر من حيث أتت. وتختلف هذه الآراء عن سابقاتها. فإننا - حسب هذا الاعتقاد - يوجد فينا ما هو أكثر من المادة وأن شيئًا ما يظل باقيا فينا إلى ما بعد الموت. ولكن هذا أيضًا يعنى أن شيئًا لن يبقى. فلعدم وجود فردية لا يوجد لدينا شعور بأنفسنا..

«ومعنى هذا الرأى أن النفس العالمية العامة إن هى إلا الله الواحد. وكل كائن إنما هو جزء منبثق من الذات العلية. وهذا شبيه بالرأى القائل بوحدة الوجود.

«وثمة آخرون يرون أن النفس كائن أخلاق بارز مستقل عن المادة، ويحتفظ بفرديته إلى ما بعد الموت. وهذا المعنى، بدون أى اعتراض، أكثر شيوعًا؛ لأنه تحت اسم أو آخر يعتبر فكرة هذا الكائن الذى يعيش فى الجسد وأنه فى حال من الاعتقاد الإلهامى مستقل عن كل تعليم عند الشعوب مهما تكن درجة مدنيتهم. والنفس - فى هذا المذهب - هى السبب وليست النتيجة. وهذا هو الرأى السائد عند الروحيين»[1].

* * *

وينتهى بعض المفكرين بتعريف الروح بثلاثة تعريفات مهمة حسب

---

(١) راجع النص كاملًا فى كتاب «الروح والخلود بين العلم والفلسفة» للمؤلف بسلسلة «اقرأ» مترجمًا عن النسخة الفرنسية لكتاب «الأرواح».

ما تؤديه من الوظائف فى هذا الوجود. فبحسب كونها أصل الحياة والحركة والنطق ومصدر الشعور لجميع الحواس فهى «الروح»؛ وبحسب كونها مصدر الإرادة فى الإنسان ومحل اكتساب الأخلاق والأفعال وإصدارها فهى «النفس»، وبحسب كونها مصدر التعقل والتفكر والتدبير واكتساب العلوم والمعارف والتجارب وغير ذلك فهى «العقل».

وفى هذا المعنى يقول العارف بالله السيد سلامة حسن الراضى فى كتابه «الإنسانية»: «إن الإنسان من حيث روحه ليس بجسم ولا عرض، ولا يحتاج إلى فراغ يشغله. مثل العقل فإنه لا يحتاج إلى مكان يحلّ فيه. والروح والعقل واللبّ والفكر والنفس جميعها واحدة والأسماء مختلفة بالاعتبارات. فباعتبار التجرد يسمى «روحًا»؛ وباعتبار اتصاله بالجسم يسمى «نفسًا»، وباعتبار تقلّبه فى أطواره يسمى «قلبًا»؛ وباعتبار أنه الخلاصة يسمى «لبًّا»؛ وباعتبار تفكره يسمى «فكرًا»؛ وهكذا يسمى: حافظة، ومصورة، وحسًّا مشتركًا ومخيلة...».

* * *

والخلط بين النفس والروح شائع لعدم تصور هذين الكائنين ومعرفة علاقة كل منهما بالآخر. مع أن القرآن الكريم فصل بينهما فصلاً حاسمًا، وأكد ذلك فى كثير من سوره وآياته، مما لا يجوز معه

أن يخلط الباحث بين النفس والروح، أو أن يعتبرهما كائنًا واحدًا.. ففى الآية الكريمة التى جاءت على لسان السيد المسيح: ﴿تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك﴾، وقوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، وقول النبى الكريم صلى الله عليه وسلم: «والذى نفسى بيده..»، نرى أن النفس تعنى الذات. ولو كانت النفس هى الروح فليس من المعقول أن يقول «وقتل نفسًا».. فغير المعقول أن تكون النفس هنا هى الروح.. والله أعلم.